صورة المرأة في شعر الحب العذري (العصر الجاهلي)
عنترة بن شداد انموذجاً

د. سؤدد يوسف عبد الرضا علي الحميري

ملخص البحث:

شغلت المرأة في العصر الجاهلي حيزاً واسعاً في مطولات الشعراء وقصائدهم ومقطعاتهم، كونها تمتعت بمكانة سامية بين العرب وحظيت بالتقدير والاحترام، فهي ارفع مكانة، واقدر على الحركة في المجتمع، اذ سبقت سواها في الاخذ بأسباب التمدن، وبلغت ما لم تبلغه غيرها، فقد كانوا يرجعون اليها احتكاماً لرأيها ويخوضون لأجلها حروباً. وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على الرقي الاجتماعي والحضاري للمجتمع الذي عاشت فيه، لا كما تصور بعض الباحثين، من ان الجاهليين لا يفهمون غير عبادة الاصنام والشجر والجن.. وعدم تقدير للمرأة من خلال وأدها، والواقع ان هذا نادر، وهي ظواهر فردية، ولا يمكن تعميمها.

ان الحب العذري ظاهرة روحية يتعلق العاشق بواسطته بمحبوبة واحدة، يرى فيها مثله الاعلى الذي يحقق له متعة الروح، ورضى النفس، واستقرار العاطفة. ولم تكن العذرية يوما ما مصطلحاً يقتصر على شعر بني عذرة، انما هو مصطلح حدده دارسو الادب والمعنيون بتحليل الامثلة الشعرية منطلقين من اجوائها العفيفة وعاطفتها الصادقة ووحدانية المرأة فيها، وديمومة هذه العاطفة، حتى بعد انقطاع الوصل، وتفرقة الاحبة تلبية للعرف الاجتماعي. ونحن مع ذلك امام ظاهرة وقعت بالفعل، وهي وجود عشاق وصل بهم العشق الى حد التصوف، فلم تكن لهم في ظاهر الامر مآرب حسية يطفئون بها ظمأهم الى الاستئثار والامتلاك.

اذن العصر الجاهلي هو منشأ الحب العذري، وعُرف من يتعفف في شعره من شعراء الجاهلية الكثير وابرزهم شاعرنا عنترة بن شداد. والحديث عن الحب في شعر عنترة امر طبيعي ما دام شاعرنا رجلاً يحس بميله للأنثى، وما دام يحيا في العصر الجاهلي الذي يكثر الحديث عن المرأة، وما دام يحب ابنة عمه عبلة. وهو حب يعنى بالمرأة يهدف الى التغني بجمال نفسها اكثر من التغني بجمال خَلقها، وهو ينسجم مع المعنى الخُلقي الذي يهدف اليه عنترة في شعره. فكانت المرأة عند عنترة روح حية تمثل مظاهر الجمال تفصح عن الادب والعفة والحياء قدر ما تفصح عن الجمال.

المقدمة

مكانة المرأة لدى الامم الغربية في القديم..

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على حبيب الله محمد (ص) سيد خلقه، وعلى آله وأصحابه إلى يوم بعثه، وبعد..

تختلف مكانة المرأة من مجتمع الى آخر بحسب التقاليد والاعراف التي يسير عليها ذلك المجتمع وبحسب الظروف الاجتماعية والمرحلة التي يمر بها.

من الحضارات الزاهرة في المجتمع القديم حضارة اليونان، ففي بداية عصرهم كانت المرأة في غاية الانحطاط ورداءة الحال (١). ولم تكن المرأة في طفولتها حتى بلوغها سن الشباب تغادر الحريم ذلك المكان الذي خصص للنساء، وكانت هي المسؤولة الوحيدة عن الغسيل والنسيج والخياطة وصناعة الاغطية، فضلا عن العناية بالمرضى(٢). أن المجتمع الاثيني في اليونان ينظر الى المرأة وكأنها متاع وتسلية (٣). اما من الوجهة القانونية فكانت المرأة تباع وتشترى في الاسواق كالسلعة وهي مجردة من حريتها في كل ما يخصها من حقوق(٤). وكان الزوج هو صاحب الحق في هذا متى شاء وهو متعارف عليه في مجتمعهم (٥).

توطئة...

مكانة المرأة عند العرب قبل الاسلام..

اما مكانة المرأة عند العرب في العصر الجاهلي (عصر ما قبل الاسلام)،

فقد كانت على العموم تتمتع بين العرب بالتقدير والاحترام، فهي ارفع مكانة، واقدر على الحركة في المجتمع اذ سبقت سواها في الاخذ بأسباب التمدن، وبلغت ما لم تبلغه اليونانية والرومانية والانكليزية، فقد كانوا يرجعون اليها احتكاماً لرأيها ويخوضون حروباً لإجلها (٦).

وهذا ان دل على شيء فهو يدل على الرقي الاجتماعي والحضاري للمجتمع الذي عاشت فيه لا كما تصور بعض الباحثين من ان الجاهليين لا يفهمون غير عبادة الاصنام والجمر والشجر والجن والواقع ان هذا نادر وهي ظواهر فردية، ولا يمكن تعميمها (٧).

وكان العرب قبل الاسلام يرثون البنت عند الموت، ولا يورث بنته الدراهم (٨)، وان كانت بعض المِلل في الجاهلية نظرت الى المرأة نظرة تحقير، ثم جاء الاسلام فأعاد بناء المجتمع من جديد فنما في نفوس العرب عقائد جديدة وأظهر تطلعات مستقلة للكون والحياة والانسان، ولقد كانت حصيلة ذلك بزوغ قيم اسلامية كانت على النقيض مما كانت عليه في الجاهلية، كان للمرأة نصيبٌ وافر من تلك التغييرات فأصبحت لها مكانة مرموقة في تشريعاته المختلفة، فرفع منزلتها وساواها بالرجل(٩).

تبوأت المرأة العربية في الجاهلية " مكانة سامية في الحياة العربية، وفي الاسرة، وفي القبيلة"(١٠) ، وظهرت هذه المكانة واضحة جلية في شعورها بمساواتها للرجل، وتوليتها للحكم، وأجارت وحمت وحين حماها، واشتركت في احلاف الرجل، وكانت أهانتها تشعل حرباً (١١).

مقاييس جمال المرأة العربية..

منذ خُلق الانسان في هذا الكون وفي نفسه ظمأ لا يرتوي ونَهم لا ينفذ الى الجمال بكافة صوره واشكاله، فقلبه يصبو اليه، وروحه تهفو نحوه، وجوارحه تتعشقه وتترصده حيثما وجد وانى كان.

والجمال منحة يهبها الله من يشاء من عباده، وقد رُوي عن رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) قوله: " ان الله جميل يحب الجمال ويحب ان يرى أثر نعمته على عبادِه" (١٢) فالجمال نعمة، والانسان ميال للجمال الذي تطورت معاييره واختلفت مقاييسه من زمن الى زمن ومن بلد الى آخر تبعا للتطور الحضاري والاجتماعي.

والجمال نسبي، فما نرآه جميلا قد يرآه غيرنا غير جميل، وهكذا ما دام مرجعه الى الذوق، والذوق يتباين بتباين البيئة والحضارة. ولكننا نجد معياراً قد يكون ثابتاً نسبياً او خطوطا عامة للجمال عند العرب يقيسون الجمال بها وينسبون اليها، ونجد شعراً تغلب عليه المادية او الاوصاف المادية، فالجسم هو الهدف اما الاشارات التي تومي الى روح المرأة التي تترك أثرها في قلب الرجل فقليلة(١٣).

مفهوم العذرية والحب العذري..

ان اصل نعت هذا الحب بالعذري، منسوب الى قبيلة عذرة، وأشار النسابون الى ان هناك خمساً من القبائل يحمل كل منها اسم عذرة، والمشهور من هذه القبائل قبيلة عذرة التي سكنت وادي القرى(١٤)، والحجر والجناب وتبوك وتيماء، وبكلمة ادق سكنت الحجاز.. من هنا يقتضي التفريق بين العذري بوصفه فرداً من قبيلة عذرة والعذري بوصفه صفة للحب الذائع الصيت.

لم تكن العذرية في الشعر يوما ما مصطلحاً يقتصر على بني عذرة، احدى القبائل التي تنزل وادي القرى على الرغم من ظهوره لأول مرة فيها، وانما هو مصطلح حدده دارسو الادب والمعنيون بتحليل الامثلة الشعرية منطلقين من اجوائها العفيفة وعاطفتها الصادقة ووحدانية المرأة فيها، وديمومة هذه العاطفة، حتى بعد انقطاع الوصل وتفرقة الاحبة تلبية للعرف الاجتماعي.

وقد استنتجت من الحوادث التي اوردتنا المظان الادبية حول العذريين والحب العذري المعايير الاتية: التفريق بين العذري بوصفه فرداً في قبيلة عذرة والعذري بوصفه صفة للحب الذائع الصيت، والنظرة المتفرسة المتفردة الى عيون تأسر القلوب وتخلب العقول، والعشق حتى الموت، والجمال في المرأة والعفة في الرجل، ورقة القلوب، وارتباط الحب او العشق بامرأة واحدة، واثر الاسلام في انصراف العشاق العذريين عن الاثم والشهوة، ووجّه عواطفهم الوجهة الروحانية البعيدة عن المآثم والشهوات الجسدية، وهنا يبرز دور الاسلام في بلورة الحب او العشق او الهوى العذري، فضلا عن الحب المتبادل بين المحب والصبية(المرأة)المحبوبة (١٥). فضلا عن ذلك " كان العاشق في حبه العذري، متميزاً بالفضيلة والخلق الكريم والمروءة والشهامة من جهة، وبتحليق روحه في دنيا الخيال مبدعاً من جهة اخرى، فهو عشق يسمو على الشهوة الحيوانية او اللذة المحرمة" (١٦)، فهو " حب خالص من شوائب الدنس والرجس، هو حب

طاهر شريف، لا يعرف مخزيات المآثم، ولا مندبات الاهواء.. والحق ان الحب في جوهره هو اقتحام واستئثار وامتلاك، هو عدوان ارواح على ارواح، واستبداد قلوب بقلوب.. الشعراء يؤذيهم جوع الارواح لا جوع البطون. والشعراء هم ممن علموا الناس ان للجمال غاية غير ما الفوا من الغايات. والشعراء هم الذين فطنوا الى ان للوجود محاسن تشتهي بجوارح غير الحواس" (١٧).

ان الشاعر لا يسمو ولا يرتفع ولا يحلق في الاجواء العالية الا ان خلصت روحه من اوضار الارضية، ونظر الى الوجود نظرة اعلى من نظرات المجذوبين الى الارض بجواذب المنفع والاغراض. فالعذرية" ضرب من الغزل مشبوب العاطفة، لا ينبعث عن مجرد الشعور بالتعاطف والحب بين رجل وامرأة، وانما يقوم اساساً على نوع من العشق عفيف" (١٨)، ونحن مع ذلك امام ظاهرة وقعت بالفعل، هي وجود عشاق وصل بهم العشق الى حد التصوف، فلم تكن لهم في ظواهر الامر مآرب حسية يطفئون بها ظمأهم الى الاستئثار والامتلاك.

ان الحب العذري ظاهرة" روحية يتعلق العاشق بواسطته بمحبوبة واحدة، يرى فيها مثله الاعلى الذي يحقق له متعة الروح، ورضى النفس واستقرار العاطفة، وهو استقرار يجعل لفتنته بواحدة عندها آماله وتحقق فيها كل آمانيه" (١٩).

وعلى الرغم من كونه" ظاهرة فنية اجتماعية جديدة بعض الجدة في حياة العرب" (٢٠)، فهذا الحب لم يكن حصراً بعفيفي بني عذرة، وشاع الحب العذري في العصر الاموي، وعرفته اكثر من قبيلة، والمعروف انه ليس بوليد العصر الاموي وتمتد جذوره الى العصر الجاهلي، لان العصر الجاهلي هو منشأ الغزل العذري(٢١).

وعرف من يتعفف في شعره من شعراء الجاهلية الكثير، ولكن بصورته البسيطة التي " ليس فيها السعة التي نشهدها في الحب العذري"(٢٢).

وقد عرف الشعر الجاهلي بماديته وجرأته في تناول جمال المرأة الواضح للعين، من الجانب الاول لان " هناك حدوداً اجتماعية تواضع عليها الناس كما تواضع عليها الشعراء، حدوداً كان بعضهم يلتزمها، وكان بعضهم يتجاوزها" (٢٣).

والجانب الثاني" ان طبيعة الشعر العربي لا يعرف هذا الاقبال على الرمز وليس ذلك من صميم طبيعته" (٢٤)، وهذان الجانبان يتوضحان في جرأة الشاعر الجاهلي في جعل المرأة بداية لقصيدته، وما هذه الجرأة الا من حقيقة تعارف عليها الجميع وهي ارتفاع مكانة المرأة لديهم، وقد تعرض لهذا الجانب كثير من الباحثين في شؤون المرأة الجاهلية بوصفها رمزاً دينياً، او مثيرة لعاطفة الرجل ومداراً لوجدانه، والى غير ذلك من الامور"(٢٥).

وعلى الرغم من هذه الجرأة المتعارف عليها اجتماعياً، نجد من السمات العفيفة في شعرهم مما يجعلنا نؤكد النظرية القائلة بان الشعر العذري عُرف قبل عصر بني امية، وقد بدت صورة هذه المرأة وحيدة لا يشاركها مكانتها في قلب الشاعر اي مظهر من مظاهر الحياة فهو لا يرى سواها.

والحب العذري يقتضي الارتباط بفتاة واحدة والاخلاص لها واعلامها بتمكنها من النفس ومثل هذه الامور لم تغب عن شعر عنترة فهو يبلغ محبوبته في غزله انها قد احتلت نفسه ونزلت فيها منزلة المحب فيقول:

ولقد نزلت فلا تظني غيره
مني بمنـزلة المحب المكرم (٢٦)

وشعره هنا صادر عن عاطفة صادقة متينة، وهو اعلى مثل لعاطفة الحب،(٢٧) وهنا تبرز قدرة الشاعر على تصوير الحب كقدرة النحات في تصوير الجمال(٢٨).

وقد اظهر عنترة في حبه وغزله اصراره على حبيبته فهو لا يريد غيرها ولا يتمنى سواها ولا يرتبط نفسه بفتاة اخرى فيقول:

ولئن سألت بذاك عبلة خبرت
أن لا اريـد من النساء سـواها(٢٩)

ان من اهم ما ميز الشاعر العذري، صدق عاطفته، وتفرد امرأة واحدة بقلبه، ظل يبتها حبه ونجواه الحزينة، وقد نسب اليها، فقالوا عنترة صاحب عبلة، وقد نجد غير اسم الحبيبة، لذا نلحظ عنده غزلاً بفتاة اخرى اسماها باسم رقاش، فهل كانت هناك محبوبة اخرى؟ واكبر ظننا ان غزل عنترة برقاش انما هو تقليد الجاهليين الذي يفتتح القصائد بالغزل او قد يكنى بها الشاعر عن حبيبته حذراً وتهيباً وتدليلاً يقول عنترة:

نأتك رقاش الا عن لمام
وامسى حبلها خلق الرمامِ
ومـا ذكـرى رقـاش اذا استقـرتْ
لدى الطرفاء عند ابني شمامِ

وقد كذبتك نفسك فاكذبنها
لمامنتك تغريرا قطامِ(٣٠)

وواضح ان الابيات السابقة فيها انكار على النفس يبديه الشاعر كما انه يذكر اسم امراة اخرى وهي قطام مما يؤكد فكرة التقليد.

هل نستطيع ان نقول ان عنترة في مقدماته الطللية قد اعطانا صورة وصفية خاصة لعبلة يمكن ان تنفرد بها؟

اننا نقول انه لم يبلغ ذلك في وصفه ولكنه بلغه في ذكر عبلة في شعره في اكثر من موضع، وتكرار ذكره لاسمها استطاع ان يؤثر في النفس وان يجعلها تعتقد وجود حواء خاصة، ولسنا نبالغ اذا قلنا ان المقدمات الطللية الاخرى تلعب دورها في محاولة طمس معالم فكرة الارتباط بانثى واحدة هي عبلة.

كما نلحظ في الابيات السابقة يبرز عنترة اسم امراتين، قطام ورقاش، كما انه في القصيدة المنسوبة اليه والمختلف في صحتها يذكر اسم سمية في مقدمته الطللية فيقول:

تعـزيت عـن ذكـرى سمية حقبـة
فبـح عنك منها بالذي انت بائـح (٣١)

فيؤيد اختلاف الارتباط بانثى واحدة، وما هذا فان تكرار ذكر عبلة في شعره يدفع الى الربط بينها وبين الشاعر بعلاقة الحب التي ذكرها في شعره ويبقى ذكر رقاش وقطام وسمية دون ان يؤثر على ذكر عبلة ولاسيما ان الشاعر قد اعطى آصرة قوية مهمة وهي الاخلاص لعبلة والتعلق بها وذلك في قوله: (ولئن سألت.....)

ومهما تكن الاسماء التي يعرضها الشاعر في صورة خاصة من الوصف والوقوف على الاطلال يصعب وجودها، وذلك راجع الى حد كبير الى طرق المعاني التقليدية.

وعدم قصد الغزل لذاته، فضلا عن ترديد عنترة الغزل بعبلة وهذا الترديد يفيد الارتباط بالفتاة الواحدة. ففي الديوان قصيدة يحاول فيها عنترة وصف شعور عبلة نحوه ويستغل هذا الشعور ليؤكد جدارته بحبها، وتعلقه بها، وهذه القصيدة تقول:

عجبت عبيلة من فتى متبذلِ
عاري الاشاجع شاحب كالمنصلِ

فتضاحكت عجبا وقالت قولةً
لا خير فيك كأنها لم تحفلِ
فعجبتُ منها كيف زلت عينها
عن ماجد طلق اليدين شمردلِ (٣٢)

ومن هنا علل ابن رشيق القيرواني تداول اسماء النساء ودورانها في قصائد الشعراء فقال: " لو للشعراء اسماء تخف على السنتهم، وتحلو في افواههم، فهم كثيرا ما يأتون بها زورا" (٣٣).

ولكنهم كثيرا ما ذكروا وصرحوا باسمائهن فلم تكن قصة الحب خافية على احد، فلا يمكن لقارئ الشعر ان يتعدى الصورة التي رسمها عنترة واخرون لهؤلاء النساء، لكون وجودهن حقيقيا في حياة الشعراء العذريين، فتكون الكناية باسمائهن ضربا من المجازفة، لذا اهتم الشعراء بذكر اسماء الحبيبات صراحة بكثرة ملحوظة، وكناية بصورة اقل، بشكل يمكن ان نعده ظاهرة في الشعر العذري تتخذ وجهين:

الاول: يجسد طاقة الايحاء لدى الشعراء وتمكنهم من اظهار حقيقة المرأة ومكانتها في دواخلهم.

الثاني: توكيد ظاهري في بناء القصيدة، وبهذا يكون التكرار قد ادى خدمة للشاعر بارضاء تعلقه بها واظهار اهتمامه بشؤونها المختلفة، حيث يعطي اسم المرأة في القصيدة حجماً لها وتعبيراً عن مكانتها، فتكرار الاسم يأتي بصور عدة، متنوعة لا تخرج في اغلب الاحيان عن الشكوى والوصف، وبذلك تصبح نموذجا رائعا لما يمكن تسميته "بالقصيدة الصورة" لان القصيدة العذرية عبارة عن صورة واحدة يمتد موضوعها في القصيدة كلها متكونة من صور جزئية" (٣٤)، وبهذا تصبح الصورة " وسيلة حتمية لادراك نوع متميز من الحقائق تعجز اللغة العادية عن ادراكه او توصيله، وتصبح المتعة التي تمنحها الصورة للمبدع قرينة الكشف التعرف على جوانب خفية من التجربة الانسانية" (٣٥).

ومنزلة عبلة في ديوان عنترة عالية، وقد كتب لها اغلب الشعر، اذ ان عنترة كان محبا لعبلة، ميالاً للانثى، وكان يعتقد ان رضاءها عنه يصعب حصوله لعبوديته، لذلك كان يحاول ابدا الربط بين مظاهر البطولة وحبه فضلا عن محاولته ربط الغزل بحسن الوصف والتعبير.

ويؤيد نظرتنا هذه الابيات السابقة التي اوردناها قبل قليل والتي اولها:

عجبـت عبيلة من فتـى مبتذل
عـاري الاشاجع شاحب كالمنصلِ(٣٦)

وابياته الاخرى التي تأتي في نفس القصيدة ويقول فيها:

ياعبـل كم من غمـرة باشرتها
بالنفسِ ما كادت لعمـرك تنجلي
فيها لوامع لـو شهدت زهاءها
لسلـوت بعد تخضبٍ وتكحلِ(٣٧)

فلم يحب امرأة سواها، فكل ما جاء بالديوان ذكر صريح وكثير لعبلة يكاد يكون في اغلب القصائد، كقوله:

وتحـــلُّ عبلةُ بالجواء واهلنا
بالحـــزنِ فالصمانِ فالمتثلم(٣٨)

وقد يرد ذكر حبيبته عبلة في شطري البيت في بعض القصائد كقوله:

يـا دار عبلة في الجواء تكلـمي
وعمـي صباحا دار عبلة واسلمي(٣٩)

وقد يأتي ذكر حبيبته عبلة اكثر من مرة في لوحة شعرية قصيرة فيقول:

دار لعبلة شـــط عنك مزارها
ونـــأت لعمري ما اراك تراها

ياعبل قد هام الفـؤاد بذكـركم
وارى ديـــوني ما يحل قضاها
ياعبل ان تبكـي عليَ بحـرقة
فلطالما بكت الـــرجال نساها
ياعبل الـــي الكريمة ضيغم
شـــرس اذا ما الطعن شق جباها

ياعبل كم من فـــارس خليته
في وسط رابيـــة يعدّ حصاها
ياعبل كم من حـــرة خليتها
تبكي وتنعـــي بعلها واخاها
ياعبل كم من مهـــرة غادرتها
من بعد صاحبها تجـــر خطاها
ياعبل لو انـــي لقيت كتيبة
سبعين الفا مـــا رهبت لقاها(٤٠)

وقد يتكرر الاسم لاكثر من مرة فعبلة حلت بمنزلة في قلب عنترة لم ينزل بها احد سواها يقول:

ولئن سألت بـــذاك عبلة خبـرت
ان لا اريـــد من النساء سواها(٤١)

فعبلة تعيش في سواد قلب عنترة وهي غاية امله كما يقول:

ياعبل انت ســـواد القلب فاحتكمي
في مهجتي واعدلي ياغاية الامل(٤٢)

وعنترة لا ينسى وهو يطلب ودّ محبوبته ان يذكرها بانه اهل لهذا الود، وموضع للحب، وانه لا يحق لها ان تصرف النظر عنه، فلقد سبقتها نساء كثيرات عرفن قدرة ومكانة وهن اجمل منها، واحلى في عين الناظر، ولكنه بمنطق الحب يريدها هي ويريد منها الرضا كما يصرح بقوله:

لا تصـــرميني ياعبيل راجعي
في البصيـــرة نظـرة المتأمل
فلرب امللـــح منك دلا فاعلمي
واقـــر في الدنيا لعين المجتلي
وصلت حبالي بالـــذي انا اهله
مـــن ودها وانا رخي المطول(٤٣)

فهو لا يزال معلق النفس بعبلة، وينشد هواها، ويطلب ودها، حتى وان اكتهل كقوله:

ألا ياعبـــل ضيعت العهودا
وامسى حبلك الماضـــي صدودا
وما زال الشبـــاب ولا اكتهلنا
ولا ابلى الزمان لنا جـــديدا(٤٤)

وكان الشاعر يتحدث عن فراق محبوبته وخطابه للغراب الذي اخطره برحيلها وبيان سهره الليل الطويل فيقول:

ظعن الذين فـــراقهم اتـوقع
وجـــرى ببينهم الغراب الابقعُ(٤٥)

فدار المحبوبة لما خلا منها اقفر واصبحت خاوية الا من الاثافي، فما كان من الشاعر الا ان يفارق النوم مقلتيه فعبر عن ذلك بقوله:

دار لعبلة شـــط عنك مـزارها
ونأت ففـــارق مقلتيك هجوعها(٤٦)

وبعدها يبدأ بالشكوى بعد ان ملئت نفسه جزعا والما من رؤية الديار مقفرة، فلم يجد غير البكاء، وليس بكائه ضعفا وانما بكاء محب عاشق، فهو ملتاع من جوى الحب وحرقته يقول:

كيف الســـلو وما سمعت حمائما
ينـــدبن الا كنـت اول بـــاكِ(٤٧)

وشكوى عنترة ليست من الحب وانما من الحياة، فهو غير راغب فيها، ولا يعلم ما الذي ينفعه بوحه او كتمانه لهذه الشكوى، ولكنه يشكو على كل حال.

ان الحديث عن المحبوبة عند فيتناول وصفا لخلقها وخُلقها وتعلقه النفسي بها ورحيلها والحديث عن خُلقها حديث مجمل مختصر رسم فيه خطا عبرا فقال:

عبيلة هـــذا در نظـم نظمته
وانت له سلكٌ وحســنٌ ومنهجُ

فيا طالما مـــازحتُ فيها عبيلة
ومازحني فيها الغـــزال المغنج
اغـن مليحُ الدل احـــور اكحل
ازجُ نقي الخد ابلـــج ادعجُ
له حاجب كانـــون فوق جفونه
وثغر كزهر الاقحـــوان مفلجُ
وردف له ثقلٌ وقـــدّ مهفهف
وخدّ به وردٌ وســـاق خدلجُ
وبطن كطـــي السابرية لين
اقب لطيف ضامـــر الكشح انعجُ (٤٨)

فلم يترك لنا فرصة لمعرفة اشياء اخرى عن اخلاق هذه المحبوبة واما خلقها فقد وصفها بجمال الفم وطيبه وجمال العينين.

فواقع عبلة عريقة النسب، قوية الشخصية، فضلا عن صفاتها الخَلقية والخُلقية، كل هذه الصفات لدى عنترة

جعلت من عبلة مثالاً ايضا للجمال المحبب لدى العربي " لان الصور الجميلة تزيد من جمال النفس وتكشف عن حواسها الجمالية، فتخلق فيها معاني التكييف والتصور الذي يقودها للتطور والابداع " (٤٩). وعبلة في وصف عنترة لها فقد وصفها بعين المحب. فهي معشوقة بدوية صالحة لدورها المشهور مع عنترة، وقد زادنا عنترة معرفة بتفصيلات ملامحها كما اسلفا سابقا.

والحديث عن المرأة وصورتها والتغزل بها في شعرالحب عند عنترة امر طبيعي ما دام شاعرنا رجلاً يحس بميله للانثى، وما دام يحيا في العصر الجاهلي الذي يكثر الحديث عن المرأة وما دام يحب ابنة عمه عبلة.

وهو يهدف من خلال شعره ابراز شخصيته امام المحبوبة واظهار تعلقه بهذه المحبوبة علها تبادله حبا بحب وعاطفة بعاطفة وان كنا نلحظ ميلا الى الادلال بالنفس والاعتزاز بالذات.

وهو حب وغزل عذري يُعنى بالمرأة في خلقها وصفاتها ويهدف الى التغني بجمال نفسها اكثر من التغني بجمال خلقها، وناحية الغزل العذري امر طبيعي ينسجم مع المعنى الخلقي الذي يهدف اليه عنترة في شعره، فمن غير المعقول فيمن يحاول ان يرسم لنفسه صورة الكمال الخلقي ان يحيد عن الارتباط بالحب والغزل العذري.

والذي يطالع الديوان يرى انه يكاد يكون خلواً من وصف جمال المرأة او الحسي او التغني بهذا الجمال، وليس هناك سوى بضعة ابيات في المعلقة تتناول فيها وصف الجمال، وهذا الوصف في مجمله لايعدو الوصف المهذب الذي يبعد عن الفحش والذي يخرج من وصف المرأة الى اوصاف اخرى كالطبيعة وغيرها بحيث تترك فكرة عن جمال المرأة مرتبطة بالشعور، ومحاطة بسياج الحشمة مع الاعجاب وشتان ما بين الوصف الذي يأتي به عنترة للمرأة وفكرة الغزل التي يطرحها وبين غزل شعراء عصره، اذ يقول:

دار للآنسة غضيض طـــرفها
طـــوع العناق لذيذة المتبسمِ

اذ تستبيك بأصلتـــــي ناعمٍ
عـذب مقبلة لذيـــذ المطعمِ
وكأنما نظـــرت بعيني شادنٍ
رشأ من الغـــزلان ليس بتوأمِ (٥٠)

نلحظ ان هذه الابيات تدور حول معنيين اثنين: جمال العين وطيب الفم، وكان عنترة في صباه يصف ابنة عمه عبلة، وكان مغرما بها يقول:

رمت الفـــؤاد مليحةٌ عذراء
بسهام لحظ ما لُـــهن دواءُ
مرتَ اوان العيد بين نـــواهدٍ
مثـل الشموس لحاظهن ضباءُ
فاغتالني سقمـي الذي في باطني
اخفيته فـــاذاعه الاخفاءُ
خطرتْ فقلتُ قضيبُ بان حـركتْ
اعطافه بعد الجنـــوب صباءُ
ورنتْ فقلتُ غـزالة مذعـورة
قد راعها وسط الفـلاة بلاءُ
وبدتْ فقلتُ البـدر ليلـة تمّه
قد قلدته نجومها الجـوزاءُ
بسمتْ فلاحَ ضياءُ لؤلؤ ثغـرها
فيه لـداء العاشقيـن شفاءُ
سجدتْ تعظـم ربها فتمايلـتْ
لجـلالها اربابنا الـعظماءُ
ياعبل مثل هـــواكِ او اضعافهُ
عنـــدي اذا وقع الاياس رجاءُ
ان كان يسعدنـــي الزمان فانني
في همتي لصـــروفه ارزاءُ (٥١)

وتطالعنا هذه الصورة في الشكوى الغزلية للشاعر العذري (عنترة) حتى اصبحت هذه الشكوى اسلوبا تميز به هذا الشعر عن سواه من الشعر الجاهلي، وقد تعرض الشاعر للمرأة في هذه الشكوى من جانبين هما:

اولهما: كونها مؤثرا عنيفا في وجدانه، فظهرت صورتها منبعثة من حالة الفشل والحرمان فجسدت هذا الحزن والالم وشدة الوجد الذي عانى منه الشاعر طيلة حياته فصورها من داخل نفسه، ليخلق موازنة وتآلفا مع ذاته ومن حوله.

ثانيهما: الجانب الذي برع فيه فابدع صورتها حين تعرض لها كيانا منفصلا، له الاثر البالغ في حياته بما ميزها الله سبحانه وتعالى عن البشر بصفات خُلقية وخلقية، فختم بها على قلبه وبصره وسمعه وتركه اسرا لا يطيق انفكاكاً عنها.

بعد ان وقعت في قلبه موقعا متفردا خلدته من بين كثرة كثيرة من العشاق فيقول:

الا يا عبـــل قد زاد التصابـي
ولج اليوم قومك في عـــذابي
وظل هـــــواك ينمو كل يوم
كما ينمو مشيبي في شبـــابي

سل يا عبـــــل عنا يوم زرنا
قبائل عامر وبنـــي كلاب (٥٢)

ونجد اسلوب التعبير عند الشاعر العذري – ومنهم عنترة – اسلوباً متفرداً

في اظهاره صورة المرأة في حياة الشاعر في القمة من التجرد (٥٣)عن كل ما ليس له علاقة الا بما يقربه منها فالتجديد بدا واضحاً على الشعر الجاهلي والذي يعدّ الشعر العذري اول بواكيره يظهر فيه واضحا بميزات اساسية هي:

اولهما: التغيير الذي اصاب بنية القصيدة الفنية واستغراقها لغرض واحد محوره المرأة وحبها الذي ملك على الشاعر جل اهتماماته اليومية والحياتية لان " العشق يترك النفس فارغة من جميع الهم الا هم المعشوق وكثرة الذكر له والفكرة في امره" (٥٤)، فغدا العذري ذاتيا للمرأة ولنفسه، فحول المقدمة الغزلية من كونها جزءً من القصيدة الى كونها محورا كليا. وان كان يظهر بصور مختلفة من وقوف على الاطلال، او عتاب من قطع الوصل، او تمن في عودته، او شكوى، او وصف لمظاهر الجمال الحسي والمعنوي للحبيبة، وقد تكون القصيدة مزيجا من هذا كله، ولكن يبقى موضوع القصيدة ووحدتها وبناؤها الفني هو المرأة وبنفس طويل يخص تجربة الشاعر العاطفية ومكانة المرأة في حياته كما اسلفنا. ان القصيدة العذرية صورة لحبيبة مختلفة الوجوه، او لوحات انثوية مختلفة المواضيع.

ثانيهما: الشكوى الغزلية برنتها الحزينة المتألمة التي كانت نوعا من التعبير الذاتي لمظهر نفسي مشترك بين الشعراء العذريين، لم يستطع عنترة التخلص من عفوية الاستجابة به، فجاء غزله صورة من صور الشكوى في رثاء النفس في حبها الضائع، وهو مظهر من "مظاهر رثاء النفس وهي تعاني ازمة خاصة فرضتها عليهم حياة البداوة وعدم الاستقرار" (٥٥) عبر عنها في صرخة الالم والحزن الواضحة في شعره. مع الاعتراف بسوداوية تجربة الحب وتشاؤميتها عند الشاعر العذري، فقد عانى من الفشل والحرمان، فالشاعر العذري- عنترة- كان يرى المرأة شطرا من النفس لا تطيب للنفس حياة الا به" (٥٦).

وعبلة عرف قلبها الهوى، ونجد تلميحات في الشعر العذري لعنترة يصور العاطفة المتبادلة مع حبيبته، وان هذه المرأة عانت كما كان يعاني من الشوق والوجد والظلم، ولم تكن شاعرة لتترجم وجدها وحبها شعراً. ولكن في بعض الاحيان كانت تبث حبها وشوقها وحزنها في صورة حوارية جميلة معبرة يقول:

لقد ودعتنـــي عبلة يـوم بينها
وداع يقين انـنـي غيـــر راجع
وناحت وقالت كيف تصبح بعـــدنا
اذا غبت عنا في القفار الشواسع (٥٧)

هذه المكانة السامية المرموقة للمرأة قدرها الشاعر الجاهلي – والعذري بخاصة- حق تقدير فرّد على التزام المرأة هذا حبا وعفة واحتراما، فتواصل بقاؤها في ضميره، فنهل يضفي على حياته بهجة ورقة، ويشيع في اجوائه الجمال والانوثة والمودة، ويعلمه العفة –عفة النفس والبدن- واشعار عنترة اظهرت المرأة قيمة عالية في حياة الشاعر بوصفها رمزا للحب والحياة والجمال، رغم علمنا انها- بثينة – تزوجت ولا نعلم ان عنترة قد تزوج الى ان مات، وقد تكون اوفى النساء له ثم تتزوج لان امرها الى غيرها، وهو لا يتزوج لان امره بين يديه.

دراسة الصورة الشعرية..

يعد هذا الاستقراء المتواضع لشعر واحد من العذريين، صوّر العذري المرأة التي احبها بصدق وشفافية بارعة. أليس العربي ممن برع في طرح ذاتيته بكل متناقضاتها وانفعالاتها، فاستحق ان يكون رائداً من رواد الشعر العربي الغنائي، فجاءت صورتها نسخة ثانية من نفسه، التي برع العذري في تصوير كل خلجاتها، في ثورتها وهدوئها، شكواها واستكانتها لقضاء الله وقدره، رقتها وعدوانيتها، احساسها بالجمال روحاً وجسداً، وتعلقها بالعفة بوصفها قيمة جديدة في الحب، وهو في كل هذا انما يبدع صوراً لعبلة، وليس من باب اغفاله تصوير عاطفتها نحوه، أوفي اغفال لانسانيتها، وانما فعل ذلك من باب تقديرها وتكريمها فهي " التي تخطب وترّاد، وتعشق وتطلب، وهي التي تفدى وتحمي" (٥٨) وان كان قد لمّح باشارات الى عواطفها وكرمها، فالمرأة في الشعر العذري:

١- عفيفة، اذلتها الاعراف السقيمة وافقدها حقها في اختيار شريك حياتها، لان وليها يجبرها على الزواج بمن يريد هو حرصاً على مال وفير او جاه رفيع.

٢- منعمة مترفة تقدر انوثتها حق قدرها، تتألق في حياة الشاعر زاهية الملابس، مكحولة العينين، لا تلبس من الثياب الا الحرير، ولا تمشي الا وعطرها يسبقها فينتشر من حولها، تضرب

خمارها عفة فيزيدها جمالا – روحاً وجسداً – مستمداً من بيئتها طبيعة وقيما، فجمالها الروحي والجسدي لا يخرج عن جمال بيئتها بطبيعتها الخلابة وقيمها الراقية.

٣- متماسكة قوية صبورة، استطاعت ان تكون زوجة مخلصة لرجل فرض عليها، فكونت اسرة وعرفت معنى الامومة، فلم تطلق بسبب حبها القديم الذي شاع وعرفه الناس.

٤- ملتزمة لم تخرج عن العرف والتقاليد، ولم تعص امرا للاهل والعشيرة فقد اطاعتهم على ظلمهم، كما اطاعت زوجها، وبقيت محافظة على حبها للشاعر.

٥- هذه المرأة كانت بطلة وحيدة لقصة حب حزينة قصها الشاعر العذري، واجمل فيها تفاصيل عشقه، وحرمانه منها، وظلم الاهل والوشاة بنفس طويل، وضمير عف، فلم يكن يعرف امرأة سواها فلا يستطيع الا ان ينظر لها بعين الاحترام والتقدير، فلم يكن مسموحا بالتبذل، ومع من يتبذل في بيئة ما زالت تعتز بقيمها الاصيلة ونقاء العفة واحترام الشرف والفروسية بكل معانيها الاخلاقية الرفيعة، لذا كانت المرأة قيمة مطلقة لديه متمثلة بالمرأة التي احبها.

٦- فصورة المرأة هي الصورة الموحدة، فقد وحدتهم في كيان واحد هو الشعور بها على انه جزء مهم من حياة الرجل ومكمل لحياته وظل لوجدانه، وقسيم لحبه، ومشاركة في فرحه وحزنه، فكانت صورتها عفيفة صبورا اكثر دورانا في الشعر العذري من صورتها مترفة منعمة متجملة، لان الشاعر العذري كان يرى في احداث حبه ومأساة فقدان حبيبته وتزوجها رجلا غيره ما يقض مضجعه ويجعله شاكيا نادبا حظه، اكثر من كونه عاشقا ينعم بحبيبته ويتمتع بجمالها، وهذا لا يعني انه اهمل صور اناقتها وانوثتها، وانما كان يمزج بين جمالها الجسدي والروحي مما جعلها جديرة بعشقه الابدي المتفرد المتسم بالصدق والوفاء والاخلاص.

الخاتمة

تبؤات المرأة العربية في العصر الجاهلي مكانة سامية في الحياة العربية، وفي الاسرة، وفي القبيلة، وظهرت هذه المكانة واضحة جلية في شعورها بمساواتها للرجل، وتوليتها للحكم، فقد اجرت وحمت واشتركت في احلاف الرجل، وكانت اهانتها تشعل حربا.

والحب العذري يقتضي الارتباط بفتاة واحدة والاخلاص لها، واعلامها بتمكنها من النفس ومثل هذه الامور لم تغب عن شعر عنترة.

والذي يطالع الديوان يرى انه يكاد يكون خلواً من وصف جمال المرأة الحسّي أو التغني بهذا الجمال. وليس هناك سوى بضعة ابيات في المعلقة تتناول فيها وصف الجمال، وهذا الوصف في مجمله لا يعدو الوصف المهذب الذي يبعد عن الفحش.

فكانت المرأة عند عنترة روح حية تمثل مظاهر الجمال تفصح عن الادب والعفة والحياء قدر ما تفصح عن الجمال.

الهوامش:

(١) المرأة بين الفقه والقانون: ١٣، لباس المرأة وزينتها في الاسلام: ١٣.

(٢) المرأة عبر التاريخ: ٩.

(٣) المرأة وحقوقها في الاسلام: ٩.

(٤) لباس المرأة وزينتها في الاسلام: ١٣، المرأة بين الفقه والقانون: ١٣.

(٥) المرأة وحقوقها في الاسلام: ١٣.

(٦) المصدر نفسه: ق٣٩/١٨.

(٧) تاريخ العرب قبل الاسلام: ٣٤٧/٦.

(٨) المصدر نفسه: ٢٥٩/٨، المرأة في الشعر الجاهلي: ٦١.

(٩) لباس المرأة وزينتها في الاسلام: ٣٣.

(١٠) المرأة في الشعر الجاهلي: ٥٣٩.

(١١) ينظر: المصدر نفسه: ٥٢٦- ٥٣٨.

(١٢) مسند احمد بن حنبل: ١٥١/٤.

(١٣) جمال المرأة عند العرب: ٥١.

(١٤) معجم البلدان: ٨١.

(١٥) ينظر : الحزن في شعر الحب العذري (العصر الاموي) دراسة موضوعية وفنية (رسالة): ٣-٥.

(١٦) مقالات في الشعر والنقد والدراسات المعاصرة : ٤٧.

(١٧) ينظر : العشاق الثلاثة: ١٥-١٧.

(١٨) اتجاهات الشعر في العصر الاموي: ٤٢٥.

(١٩) في الحب والحب العذري:٧٩.

(٢٠) الحب العذري نشأته وتطوره: ٣٣.

(٢١) الغزل في الشعر الجاهلي:٢١٣.

(٢٢) الحب العذري نشأته وتطوره: ٣٦.

(٢٣) تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام:١٧٤.

(٢٤) المصدر نفسه: ١٧٥.

(٢٥) المرأة في الشعر الجاهلي: ٧٦.

(٢٦) شرح ديوان عنترة بن شداد : ٩٧.

(٢٧) ينظر: الحب العذري نشأته وتطوره: ٣٣-٥٥.

(٢٨) دولة النساء: ٤٨٥.

(٢٩) شرح ديوان عنترة بن شداد:٩٨.

(٣٠) المصدر نفسه:٩٨.

(٣١) م. ن: ٩٥.

(٣٢) م. ن: ٩٨.

(٣٣) العمدة في محاسن الشعر وادبه ونقده: ١٢١/٢.

(٣٤) صورة المرأة في الشعر الاموي (رسالة): ٧٥.

(٣٥) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور: ٤٦٤.

(٣٦) شرح ديوان عنترة بن شداد: ٩٨.

(٣٧) المصدر نفسه: ٩٨.

(٣٨) ديوان عنترة، تح: محمد سعيد مولوي:ق٧/٢٥٤.

(٣٩) المصدر نفسه: ق١/١٨٣.

(٤٠) شرح ديوان عنترة بن شداد: ١٦٠-١٦٢.

(٤١) المصدر نفسه: ١٦٠.

(٤٢) م. ن: ١١٢.

(٤٣) ديوان عنترة، تحقيق:محمد سعيد مولوي: ق٧/٢٥٧.

(٤٤) شرح ديوان عنترة بن شداد: ٤٧.

(٤٥) ديوان عنترة: ١٢١.

(٤٦) شرح ديوان عنترة بن شداد: ٨٦.

(٤٧) المصدر نفسه: ٩٨.

(٤٨) شرح ديوان عنترة بن شداد: ٣١-٣٢.

(٤٩) خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجددة دراسة وتحليل ونقد، محمد صادق حسن:٢٨٩.

(٥٠) ديوان عنترة :٩٧.

(٥١) شرح ديوان عنترة بن شداد: ٥-٦.

(٥٢) المصدر نفسه: ١٤.

(٥٣) تاريخ الشعر العربي حتى اخر القرن الثالث الهجري، محمد نجيب البهبيتي: ١٨٠.

(٥٤) رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء(ماهية العشق): ٢/٢٧٠.

(٥٥) المرثاة الغزلية في الشعر العربي، د.عناد غزوان: ٨.

(٥٦) حديث الاربعاء، طه حسين: ١/٢٨٧.

(٥٧) شرح ديوان عنترة: ٨٠.

(٥٨) رسائل الجاحظ (كتاب النساء):٣/١٤٦.

المصادر والمراجع

- اتجاهات الشعر في العصر الاموي، د.صلاح الدين الهادي، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة، ١٩٨٦م.
- تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، نجيب محمد البهبيتي، دار الفكر، ط٤، القاهرة، ١٩٥٠م.
- تاريخ العرب قبل الاسلام، د.جواد علي، مطبعة مجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦م.
- تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام، شكري فيصل، دار العلم للملايين، ط٥، بيروت، ١٩٥٩م.
- جمال المرأة عند العرب، د. صلاح الدين المنجد، مطبعة دار الكتب، بيروت، ١٩٥٧م.
- الحب العذري نشاته وتطوره، احمد عبد الستار الجواري، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٤٨م.
- حديث الاربعاء، طه حسين، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧م.
- خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجددة دراسة وتحليل ونقد، محمد صادق حسن، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).
- دولة النساء(معجم ثقافي اجتماعي لغوي عن المرأة)، عبد الرحمن البرقوقي، مكتبة النهضة المصرية، ط١، مصر، ١٩٤٥م.

- ديوان عنترة، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، المكتب الاسلامي، (د.ت).
- رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء، تصحيح: خير الدين الزركلي، بيروت، ١٩٥٧م.
- شرح ديوان عنترة بن شداد، تصحيح: امين سعيد، المطبعة العربية، مصر، (د.ت).
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د.جابر عصفور، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٤م.
- العشاق الثلاثة، زكي مبارك، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٤٥م.
- العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٣، القاهرة، ١٩٦٤م.
- الغزل في الشعر الجاهلي، احمد محمد الحوفي، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٧٢م.
- في الحب والحب العذري، صادق جلال العظم، منشورات نزار قباني، ط١، بيروت، ١٩٦٨م.
- لباس المرأة وزينتها في الاسلام، مهدية الزميلي، دار الفرقان للنشر، ط١، عمان، ١٩٨٢م.
- المرأة بين الفقه والقانون، مصطفى السباعي، مطبعة جامعة دمشق، ط١، دمشق، ١٩٦٢م.
- المرأة عبر التاريخ، مونيك بيتير، ترجمة: هيربيت، دار الطليعة، بيروت، (د.ت).
- المرأة في الشعر الجاهلي، د.علي الهاشمي، مطبعة المعارف، بغداد،١٩٦٠م.
- المرأة وحقوقها في الاسلام، العلامة ابو النصر، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٧٩م.
- المرثاة الغزلية في الشعر العربي، د.عناد غزوان، بغداد، ١٩٧٤م.
- مسند احمد بن حنبل، للامام ابي عبد الله احمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي.
- معجم البلدان، للشيخ الامام بن حجة الحموي، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٩٩٥م.
- مقالات في الشعر والنقد والدراسات المعاصرة، د.احمد اسماعيل النعيمي، ار الفراهيدي للنشر، ط١، بغداد، ٢٠١١م.

الرسائل والاطاريح:

- الحزن في شعر الحب العذري (العصر الاموي) دراسة موضوعية وفنية، سؤدد يوسف عبد الرضا الحميري، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٩م.
- صورة المرأة في الشعر الاموي، ساجدة هاشم الحيالي، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ١٩٨٨م.